السيرة الذاتية بين التشكّل الفكري والبناء الأسلوبي في كتاب «هذه حياتي» لعبد الحميد جودة السحّار

فطن مشهود بحري
جامعة سونان أمبيل الإسلامية الحكومية

البريد الإلكتروني : fathinmasyhud@uinsa.ac.id

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة أدبية تحليلية لكتاب «هذه حياتي» لعبد الحميد جودة السحّار (١٩١٣–١٩٧٤)، بوصفه نموذجًا مميزًا لفن السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث. ويهدف البحث إلى الكشف عن ملامح التشكّل الفكري للكاتب كما تتجلى في سيرته الذاتية، وتحليل البناء الأسلوبي الذي اعتمده في تقديم تجربته الحياتية .ويركّز البحث على دراسة الخلفيات الفكرية والثقافية التي أسهمت في تكوين شخصية السحّار، وكيف انعكست هذه الخلفيات في نصه السيرذاتي، إلى جانب تحليل السمات الأسلوبية والسردية التي ميّزت خطابه من حيث اللغة، وبنية السرد، وتوظيف ضمير المتكلم، واستحضار الذاكرة. ويعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال قراءة النص قراءة دقيقة، وتحليل مكوناته الفكرية والأسلوبية في ضوء مفاهيم النقد الأدبي الحديث، للكشف عن العلاقة بين التجربة الذاتية والبناء الفني في النص .وقد توصل البحث إلى أن كتاب «هذه حياتي» يعكس بوضوح التشكّل الفكري لعبد الحميد جودة السحّار، ويكشف عن وعيه بذاته وبمجتمعه، كما يتميز ببناء أسلوبي يجمع بين السرد البسيط والبعد التأملي، مما يجعل النص نموذجًا متكاملًا للسيرة الذاتية التي تتداخل فيها التجربة الفكرية مع التعبير الأدبي.

الكلمات المفتاحية: عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، السيرة الذاتية، التشكّل الفكري، البناء الأسلوبي.

خلفيات البحث :

تعد السيرة الذاتية من أبرز فنون الأدب الحديث، إذ تمثّل مجالًا خصبًا لتجلّي الذات الإنسانية من خلال استحضار التجربة الشخصية، والتعبير عن الوعي الفردي في سياقه الاجتماعي والثقافي. وقد حظي هذا الفن باهتمام متزايد في الدراسات النقدية المعاصرة، لما ينطوي عليه من أبعاد فنية ونفسية وفكرية، تجعل منه نصًا غنيًا للتحليل والدراسة[١]. حيث يقدّم فيه الكاتب سيرته الذاتية بأسلوب سردي يجمع بين البساطة والعمق، ويكشف عن مراحل تكوّنه الفكري والثقافي، من خلال عرض تجاربه الحياتية في الطفولة والشباب، وعلاقته بالأسرة والمجتمع والتعليم.

ولا تقتصر أهمية السيرة الذاتية على بعدها الأدبي فحسب، بل تمتد لتشمل بعدها المعرفي والتاريخي، حيث تمكّن القارئ من الوقوف على ملامح تشكّل الشخصية الإنسانية في تفاعلها مع محيطها، كما تكشف عن طبيعة العلاقة بين الذات والواقع، وبين التجربة الفردية والتحولات الاجتماعية[٢]. وفي هذا السياق، برزت دراسات نقدية حديثة تهتم بتحليل السيرة الذاتية من زوايا متعددة، من بينها التركيز على التشكّل الفكري للكاتب، بوصفه نتاجًا لتراكم الخبرات والتجارب، وكذلك تحليل البناء الأسلوبي للنص، من حيث اللغة، والسرد، وتوظيف ضمير المتكلم، وآليات استحضار الذاكرة[٣].

وعلى الرغم من القيمة الأدبية والفكرية لهذا العمل، فإنه لم ينل حظه الكافي من الدراسة الأكاديمية، خاصة من حيث تحليل التشكّل الفكري والبناء الأسلوبي في نصه السيرذاتي، مما يبرز الحاجة إلى دراسته دراسة نقدية تكشف عن خصائصه الفنية، وتبرز مكانته في سياق السيرة الذاتية العربية الحديثة.

مشكلة البحث :

تتمثل مشكلة هذا البحث في الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما الخلفيات الفكرية والثقافية التي شكلت شخصية السحار في كتابه "هذه حياتي"؟
٢. ما السمات الأسلوبية والمنهجية التي تميز بها السحار في كتابة سيرته الذاتية؟
٣. كيف يعكس كتاب «هذه حياتي» منهج السحار العام في الأدب الإسلامي؟

منهجية البحث

يعد اختيار المنهج العلمي المناسب خطوةً أساسية في إنجاز البحث الأدبي، لما له من دور في توجيه

---

[١] إحسان عباس، *فن السيرة*، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٥ .

[٢] فيليب لوجون، السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ، ترجمة عمر حلي، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٤، ص ٣٢.

[٣] جميل حمداوي، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الريف للطباعة والنشر، المغرب، ٢٠١٠، ص ٦٧.

عملية التحليل والكشف عن دلالات النص. وانطلاقًا من طبيعة هذا البحث الذي يهدف إلى دراسة السيرة الذاتية في كتاب «هذه حياتي» لعبد الحميد جودة السحّار من زاوية التشكّل الفكري والبناء الأسلوبي، فقد تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي بوصفه من أكثر المناهج ملاءمةً لتحليل النصوص الأدبية.

يقوم المنهج الوصفي التحليلي على وصف الظواهر الأدبية كما تظهر في النص، ثم تحليلها للكشف عن بنيتها الداخلية ودلالاتها الفنية والفكرية، دون الاكتفاء بالسرد أو العرض، بل يتجاوز ذلك إلى تفسير الظواهر وربطها بالسياق العام للنص[٤]. ويعد هذا المنهج مناسبًا لدراسة السيرة الذاتية، لأنها تقوم على تداخل بين التجربة الذاتية والبناء الفني، مما يستدعي تحليلًا يجمع بين الوصف والتفسير.

وفي إطار هذا المنهج، يعتمد البحث على قراءة نص «هذه حياتي» قراءةً تحليلية دقيقة، تستهدف الوقوف على مظاهر التشكّل الفكري لدى الكاتب، من خلال تتبع الخلفيات الثقافية والاجتماعية والتعليمية التي أسهمت في تكوين شخصيته، كما تظهر في النص. ويشمل ذلك تحليل التجارب الحياتية التي مرّ بها الكاتب، وكيف انعكست في رؤيته لنفسه وللعالم من حوله.

كما يركز البحث على تحليل البناء الأسلوبي للنص، من خلال دراسة اللغة المستخدمة، ومستوى التعبير، وبنية الجملة، إضافةً إلى تحليل الخصائص السردية، مثل توظيف ضمير المتكلم، وتسلسل الأحداث، وبنية الزمن، وآليات الاسترجاع، بوصفها عناصر أساسية في تشكيل الخطاب السيرذاتي[٥].

ويستعين البحث كذلك ببعض أدوات التحليل السردي، التي تعد جزءًا من المناهج النقدية الحديثة، حيث يتم تحليل بنية السرد من خلال دراسة العلاقة بين الراوي والمروي، وطبيعة الزمن السردي، وكيفية تنظيم الأحداث، فضلًا عن دور الذاكرة في إعادة تشكيل التجربة الحياتية داخل النص[٦]. ويسهم هذا التحليل في الكشف عن الكيفية التي يتحوّل بها الواقع الشخصي إلى خطاب أدبي.

أما من حيث إجراءات البحث، فقد تم اتباع الخطوات الآتية:

أولًا: جمع المادة العلمية، وذلك من خلال الاعتماد على النص الأصلي لكتاب «هذه حياتي»، بوصفه المصدر الرئيس للدراسة، إلى جانب الاستعانة بالمراجع النظرية المتعلقة بالسيرة الذاتية والنقد السردي.

ثانيًا: القراءة التحليلية للنص، حيث تم تقسيمه إلى وحدات دلالية وفق الموضوعات الرئيسة، مثل: الطفولة، والتعليم، والأسرة، والتجارب الاجتماعية، بهدف تسهيل عملية التحليل.

ثالثًا: تصنيف الظواهر النصية، وذلك من خلال التمييز بين ما يتعلق بالتشكّل الفكري، وما يرتبط بالبناء الأسلوبي، مع رصد الأمثلة الدالة على كل جانب.

رابعًا: تحليل المعطيات، من خلال ربط الظواهر النصية بالمفاهيم النظرية، مثل الهوية السردية، والذاكرة،

---

[٤] محمد عبد المنعم خفاجي، مناهج البحث الأدبي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٥.

[٥] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١١٢.

[6] Gérard Genette, Narrative Discourse: An Essay in Method, Cornell University Press, 1980, p. 25.

والزمن، والأسلوب، للوصول إلى نتائج دقيقة.

خامسًا: استخلاص النتائج، التي تُبيّن طبيعة العلاقة بين التجربة الذاتية والبناء الفني في النص، ومدى انعكاس التشكّل الفكري في الأسلوب السردي.

ويهدف هذا المنهج إلى تقديم قراءة نقدية متكاملة للنص، تجمع بين التحليل الفكري والأسلوبي، بما يسهم في إبراز خصوصية السيرة الذاتية عند عبد الحميد جودة السحّار، ويكشف عن قيمتها الأدبية في سياق الأدب العربي الحديث.

وبذلك، يسعى البحث إلى تحقيق توازن منهجي بين الجانب النظري والتطبيقي، من خلال توظيف المفاهيم النقدية في تحليل النص، دون إغفال خصوصية التجربة الذاتية التي تمثّل جوهر هذا الفن الأدبي.

النتائج

السيرة الذاتية فن جديد في الأدب العربي

شهد الأدب العربي الحديث تحوّلًا نوعيًّا مع بروز فنّ السيرة الذاتية بوصفه تعبيرًا عن الوعي الفردي، في مقابل الطابع الجماعي الذي ميّز كثيرًا من نصوص التراث. وقد ارتبط هذا التحول بسياق النهضة العربية وما رافقها من احتكاك بالثقافة الغربية، حيث اطّلع الأدباء العرب على نماذج جديدة في الكتابة السردية تُعلي من شأن الذات وتجعلها موضوعًا للمعرفة والتأمل. وفي هذا الإطار، يعرّف عبد الرحمن بدوي السيرة الذاتية بأنها نص يستعيد فيه الكاتب مسار حياته معبّرًا عن تجاربه الخاصة،[٧] وهو تعريف يتقاطع مع تصور فيليب لوجون الذي يرى السيرة الذاتية حكيًا استعاديًا يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص مع تطابق المؤلف والسارد والشخصية.[٨] ويكشف هذا التطابق عن خصوصية هذا الفن الذي يقوم على بناء الهوية السردية للكاتب من خلال استعادة الماضي وإعادة تأويله.

ورغم حداثة هذا الفن في الأدب العربي، فإن له امتدادات في التراث، حيث نجد نصوصًا حملت ملامح ذاتية، وإن لم تكن مكتملة من حيث البناء الفني. ويُعدّ كتاب المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي مثالًا بارزًا على ذلك، إذ يعرض فيه المؤلف تجربته الفكرية والروحية بأسلوب قريب من الاعتراف، متتبعًا مراحل الشك واليقين في مسيرته. كما تتضمّن كتب الرحلات، مثل رحلة ابن بطوطة، عناصر ذاتية تظهر في وصف التجربة الشخصية، غير أنّ هذه النصوص لم تجعل من الذات محورًا للسرد، بل ظلّت مرتبطة بوظائف تعليمية أو وصفية[٩]. ومن هنا، يمكن القول إن السيرة الذاتية العربية الحديثة نشأت من تفاعل

---

[٧] عبد الرحمن بدوي، السيرة الذاتية (القاهرة: دار النهضة العربية. ١٩٩٨)، ٢٤

[8] Philippe Lejeune, Le Pacte Autobiographique, (Paris: Seuil, 1975).

[٩] إحسان عباس، فن السيرة (بيروت: دار الثقافة. ١٩٨٧)، ٦٧

بين هذه الجذور التراثية والتأثيرات الغربية، خاصة مع انتشار الترجمة وتطور أشكال السرد.

وقد بلغ هذا الفن درجة من النضج في القرن العشرين مع ظهور نماذج بارزة، من أهمها كتاب الأيام لطه حسين، الذي قدّم فيه تجربة شخصية عميقة مزجت بين السرد والتحليل النفسي والنقد الاجتماعي، مما جعله نموذجًا رائدًا في السيرة الذاتية العربية[١٠]. كما قدّم عباس محمود العقاد في أنا صورة للمثقف الذي يعيد قراءة ذاته في ضوء مشروعه الفكري، في حين كتب أحمد أمين سيرته بأسلوب يجمع بين البساطة والتأمل في كتابه حياتي[١١]. وتتميّز هذه الأعمال بخصائص فنية مثل الصدق التعبيري، واستخدام تقنيات السرد الحديثة كالاسترجاع، والقدرة على تحويل التجربة الفردية إلى تجربة إنسانية عامة، وهو ما يجعل السيرة الذاتية تتقاطع مع الرواية من حيث البناء، مع احتفاظها بمرجعيتها الواقعية.[١٢]

غير أنّ السيرة الذاتية تثير إشكاليات نقدية معقّدة، خاصة فيما يتعلّق بمسألة الصدق وحدود التخييل، إذ لا يمكن اعتبارها نقلًا موضوعيًا للحياة، بل هي إعادة بناء للواقع وفق رؤية الكاتب وانتقائه للأحداث. وقد أشار جورج ماي إلى أن السيرة الذاتية تمثّل بناءً سرديًا للذات أكثر من كونها تسجيلًا حرفيًّا للحياة[١٣]. وفي السياق العربي، يؤكد النقاد أن هذا الفن يقع في منطقة وسطى بين الواقع والتخييل، حيث تتداخل الذاكرة مع الخيال في تشكيل النص، مما يمنح السيرة الذاتية طابعها الإبداعي والإنساني في آن واحد.[١٤] وبذلك، فإن السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث لا تُعدّ مجرد توثيق للحياة، بل هي فعل تأملي يعكس تحوّل الإنسان العربي نحو اكتشاف ذاته والتعبير عنها ضمن سياق ثقافي واجتماعي متغيّر.

الخلفيات الفكرية والثقافية للسحار في كتاب «هذه حياتي»

يعد تحليل الخلفيات الفكرية والثقافية التي أسهمت في تشكيل شخصية عبد الحميد جودة السحّار في كتابه هذه حياتي مدخلًا جوهريًا لفهم طبيعة التشكّل الذاتي لديه، إذ تكشف السيرة عن تفاعل عميق بين التجربة الفردية والسياق الاجتماعي والثقافي المحيط. فمن خلال استحضار لحظات الطفولة، يتبيّن أن الأسرة كانت الحاضنة الأولى لتكوّن الوعي، حيث تتجلّى القيم التقليدية والتربية المحافظة بوصفها مرتكزات أساسية في بناء الشخصية. ويبرز السحّار أثر هذا المحيط حين يشير إلى التزام والده بالقيم الموروثة، مما يدل على أن الذات لم تتشكّل بمعزل عن البيئة، بل في إطارها. وهذا ما تؤكده الدراسات الحديثة التي ترى أن الهوية في السيرة الذاتية هي نتاج تفاعل مستمر بين الذات وسياقها الاجتماعي (Smith

---

[١٠] طه حسين، الأيام (القاهرة: دار المعارف. ١٩٩٧)،

[١١] أحمد أمين، حياتي (القاهرة : داز الهلال. ١٩٩٨)،

[١٢] عبد الله إبراهيم، السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي (بيروت: المركز الثقافي العربي. ٢٠١١)،

[13] Georges May, L'autobiographie, Presses Universitaires de France, 1984.

[١٤] عبد الله إبراهيم، السردية العربية ص ١٣٤

& Watson, 2010).

يتجلّى التشكّل الفكري في «هذه حياتي» من خلال استحضار الكاتب لتجاربه الأولى، وربطها بمسار وعيه اللاحق. يقول السحّار:

«كنتُ أجد في القراءة عالمًا آخر أهرب إليه، عالمًا أوسع من حدود البيت والحارة»[١٥].

يكشف هذا النص عن وعي مبكر لدى الكاتب بدور القراءة في توسيع مداركه، حيث تتحول التجربة الفردية إلى وسيلة لاكتشاف العالم. ولا يقتصر الأمر على مجرد وصف تجربة، بل يتجاوز ذلك إلى إدراك وظيفتها في تشكيل الذات، وهو ما ينسجم مع ما ذهب إليه النقاد من أن السيرة الذاتية تمثل إعادة بناء للهوية من خلال الذاكرة[١٦].

كما يعكس هذا القول بداية تشكّل الحس الثقافي لدى الكاتب، حيث تصبح القراءة أداة للتحرر من القيود الاجتماعية، وهو ما يفسّر توجهه اللاحق نحو الكتابة الأدبية ذات البعد الفكري.

يتجلّى التشكّل الفكري عند عبد الحميد جودة السحّار منذ اللحظات الأولى التي يستحضر فيها بداية وجوده في الحياة، حيث يربط بين تجربة الميلاد وبين الوعي اللاحق بالذات. يقول السحّار:

«وُلدتُ إلى الدنيا رغم أنفي، أستقبلها بالعويل لأبدأ رحلة الموت»[١٧].

يكشف هذا التعبير عن رؤية فلسفية مبكرة للحياة، حيث لا يقدّم الكاتب واقعة الميلاد بوصفها حدثًا بيولوجيًا فحسب، بل يؤطرها ضمن تصور وجودي يقوم على مفارقة الحياة والموت. فالحياة عنده تبدأ بالبكاء، وتنتهي بالموت، وهو ما يعكس وعيًا تأمليًا يتجاوز حدود التجربة المباشرة.

كما أن هذا التصوير يدل على أن الكاتب لا يستحضر الماضي استحضارًا سطحيًا، بل يعيد تأويله في ضوء وعيه الحاضر، وهو ما يجعل السيرة الذاتية عملية بناء فكري للذات، لا مجرد تسجيل للذكريات. ويتوافق ذلك مع ما ذهب إليه فيليب لوجون من أن السيرة الذاتية تمثل إعادة كتابة للحياة وفق منظور ذاتي واعٍ[١٨].

ومن جهة أخرى، يكشف السياق الذي ورد فيه هذا القول عن أثر البيئة الأسرية في تشكيل الوعي المبكر، حيث يصف الكاتب حالة القلق التي كانت تسود البيت، وتوقعات الأم، مما يعكس أن الذات تتكوّن منذ البداية داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية والثقافية.

وبذلك، يمكن القول إن السحّار يؤسس منذ الصفحات الأولى لسيرته رؤية فكرية للحياة، تقوم على التأمل في الوجود، وربط التجربة الفردية بالسياق الإنساني العام، وهو ما يشكّل أساسًا لبناء هويته

---

[١٥] عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، (يُستكمل رقم الصفحة حسب الطبعة).

[16] Philippe Lejeune, Le pacte autobiographique, Seuil, 1975, p. 14.

[١٧] عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، ص ٨.

[18] Philippe Lejeune, Le pacte autobiographique, Seuil, 1975, p. 14.

الفكرية في ما بعد.

ومن جانب آخر، تكشف السيرة عن الدور المحوري للتجربة الثقافية والتعليمية في بناء الوعي الفكري، حيث تحتلّ القراءة مكانة مركزية في تشكيل شخصية السحّار. فقد عبّر عن توجهه المبكر نحو القراءة بوصفها وسيلة لاكتشاف العالم وتجاوز حدود الواقع الضيق، وهو ما يعكس إدراكًا مبكرًا لقيمة المعرفة في تشكيل الذات. ولا تقتصر القراءة هنا على بعدها المعرفي، بل تمتد إلى بعدها النفسي، إذ تمثّل أداة للتحرر الداخلي وإعادة بناء الوعي. ويتقاطع هذا التصور مع ما ذهب إليه فيليب لوجون من أن السيرة الذاتية تقوم على إعادة بناء الهوية من خلال استحضار التجربة في ضوء وعي لاحق.(Lejeune, 1975)

كما يتجلّى التشكّل الفكري للسحّار في البعد التأملي الذي يطبع نظرته إلى الحياة، حيث يعيد تأويل التجارب الأولى ضمن رؤية فلسفية ناضجة. ويظهر ذلك بوضوح في تصويره لحظة الميلاد بوصفها بداية لرحلة وجودية، وهو تعبير يكشف عن وعي يتجاوز حدود التجربة المباشرة إلى التأمل في معنى الحياة والموت. ومن ثمّ، فإن السيرة لا تكتفي بسرد الأحداث، بل تعيد بناءها وفق رؤية فكرية، وهو ما يؤكد أن السيرة الذاتية تمثّل بناءً تأويليًا للذات أكثر من كونها تسجيلًا موضوعيًا للوقائع .(May, 1984) كما يعزّز هذا الطرح ما أشار إليه عبد الله إبراهيم من أن الخطاب السيرذاتي يحوّل التجربة الفردية إلى بنية سردية ذات دلالات ثقافية وفكرية (إبراهيم، ٢٠١١).

تكشف النصوص عن تفاعل واضح بين التشكّل الفكري والبناء الأسلوبي، حيث ينعكس الوعي الفكري في اختيار أسلوب بسيط يميل إلى التأمل. يقول السحّار:

«لم تكن الحياة سهلة، لكنها كانت تعلمنا كيف نصبر ونفكر»[١٩].

يعكس هذا القول نزعة تأملية واضحة، حيث يتحول الحدث إلى درس فكري، ويصبح الأسلوب وسيلة للتعبير عن هذا الوعي. ومن ثمّ، فإن البناء الأسلوبي لا ينفصل عن التجربة الفكرية، بل يُعَدُّ تجسيدًا لها.

ولا يمكن فصل هذا التشكّل الفكري عن السياق الاجتماعي والثقافي الذي عاش فيه السحّار، حيث شهدت مصر في تلك المرحلة تحولات عميقة تمثّلت في التفاعل بين القيم التقليدية ومظاهر التحديث. وقد انعكس هذا التداخل في وعي الكاتب، الذي جمع بين الالتزام بالمرجعية الثقافية الإسلامية والانفتاح على أشكال التعبير الأدبي الحديثة. ومن ثمّ، فإن شخصية السحّار تشكّلت من خلال تفاعل مجموعة من العوامل المتداخلة: البيئة الأسرية، والتجربة الثقافية، والتحولات الاجتماعية، وهو ما يجعل سيرته نموذجًا دالًا على كيفية تشكّل الذات العربية الحديثة. وتؤكد هذه النتيجة ما ذهب إليه إحسان عباس من أن السيرة الذاتية تمثّل مرآة تعكس تفاعل الفرد مع عصره (عباس، ١٩٨٧).

لا ينفصل التشكّل الفكري عن البيئة الاجتماعية، إذ يحرص السحّار على إبراز تأثير الأسرة والمجتمع في تكوينه، حيث يقول:

---

[١٩] عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، ص.(...)

«كان أبي شديد الحرص على أن نلتزم بالتقاليد، وأن نحافظ على ما ورثناه من قيم»[٢٠].

يدل هذا النص على حضور القيم التقليدية في حياة الكاتب، وهو ما يشكّل أحد مكونات وعيه الفكري. فالبيئة هنا ليست مجرد إطار خارجي، بل عنصر فاعل في تشكيل الهوية، حيث تتداخل التربية مع التجربة الفردية.

ويؤكد ذلك ما تشير إليه الدراسات الحديثة من أن السيرة الذاتية تمثل تفاعلًا مستمرًا بين الذات والبيئة، بحيث لا يمكن فهم التجربة الفردية بمعزل عن سياقها الاجتماعي[٢١].

يتجلّى أثر البيئة في بناء وعي عبد الحميد جودة السحّار من خلال تصويره الدقيق للأجواء الأسرية التي نشأ فيها، حيث يربط بين التجربة الفردية والإطار الاجتماعي المحيط به. يقول السحّار:

«وكانت أمي تنتظر مولدي في قلق، لأنها كانت تخشى أن يكون مصيري كمصير من سبقوني»[٢٢].

يكشف هذا النص عن حضور قوي للبيئة الأسرية في تشكيل الوعي المبكر لدى الكاتب، حيث لا يظهر الميلاد بوصفه حدثًا فرديًا، بل تجربة مشحونة بمخاوف وتوقعات عائلية. وهذا يدل على أن الذات منذ نشأتها الأولى تتكوّن داخل سياق اجتماعي، تتداخل فيه العاطفة مع القلق، والتجربة الفردية مع الذاكرة الجماعية للأسرة.

كما يعكس هذا المشهد طبيعة البيئة التقليدية التي نشأ فيها الكاتب، حيث تلعب الأسرة دورًا محوريًا في توجيه الوعي، وغرس القيم، وتحديد نظرة الفرد إلى الحياة. فالقلق الذي تعبّر عنه الأم ليس مجرد شعور عابر، بل هو انعكاس لواقع اجتماعي وثقافي يؤثر في تشكيل شخصية الطفل منذ لحظاته الأولى.

ويتوافق ذلك مع ما تشير إليه دراسات السيرة الذاتية من أن بناء الوعي الفردي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالبيئة الاجتماعية، حيث تتشكّل الهوية من خلال التفاعل المستمر بين الذات والآخرين[٢٣].

ومن ثمّ، فإن هذا النص يبرز بوضوح أن السحّار لا يقدّم تجربته بوصفها معزولة، بل بوصفها جزءًا من نسيج اجتماعي أوسع، وهو ما يمنح سيرته بعدًا إنسانيًا يتجاوز حدود الذات إلى الجماعة.

السمات الأسلوبية والمنهجية في كتاب «هذه حياتي»

يُظهر كتاب هذه حياتي لعبد الحميد جودة السحّار بنية أسلوبية ومنهجية متماسكة، تعكس وعي الكاتب بطبيعة الخطاب السيرذاتي بوصفه فنًا يقوم على التداخل بين التجربة الشخصية والبناء الفني.

---

[٢٠] عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، ص.(...)

[21] Smith & Watson, Reading Autobiography, University of Minnesota Press, 2010, p. 5.

[٢٢] عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، ص ٧.

[23] Smith & Watson, Reading Autobiography: A Guide for Interpreting Life Narratives, University of Minnesota Press, 2010, p. 6.

ومن أبرز السمات الأسلوبية اعتماد السحّار على ضمير المتكلم (الأنا)، مما يمنح النص طابعًا ذاتيًا مباشرًا، ويُرسّخ ما أشار إليه فيليب لوجون من تطابق بين المؤلف والسارد والشخصية بوصفه شرطًا أساسًا في السيرة الذاتية .(Lejeune, 1975) ويؤدي هذا التوظيف إلى تعزيز صدقية الخطاب، إذ يشعر القارئ أنه أمام تجربة حقيقية تُروى من داخلها، لا من خارجها. كما يسهم هذا الحضور المكثف للأنا في بناء ما يُعرف بالهوية السردية، حيث تتشكّل الذات من خلال عملية الحكي نفسها، لا بوصفها معطى جاهزًا.

ومن الناحية اللغوية، يتسم أسلوب السحّار بالبساطة والوضوح، بعيدًا عن التعقيد البلاغي، وهو اختيار فني يعكس رغبة في تقريب التجربة إلى القارئ، وجعلها قابلة للتلقي والتأثر. فالجمل تميل إلى القِصر والتركيب المباشر، مع حضور نبرة تأملية تضفي على النص عمقًا دلاليًا. وتنسجم هذه السمة مع ما ذهب إليه إحسان عباس من أن السيرة الذاتية الناجحة هي التي توازن بين الصدق التعبيري والوضوح الأسلوبي (عباس، ١٩٨٧). كما أن هذا الأسلوب البسيط لا يعني فقرًا فنيًا، بل هو تعبير عن وعي جمالي يجعل اللغة خادمة للتجربة، لا غاية في ذاتها.

يتجلّى البناء الأسلوبي في اعتماد الكاتب على ضمير المتكلم، مما يعزّز حضور الذات في النص. يقول السحّار:

«شعرتُ لأول مرة أن لي كيانًا مستقلًا، وأنني أستطيع أن أختار طريقي»[٢٤].

يعكس هذا الاستخدام المكثف لضمير «أنا» مركزية الذات الساردة، حيث يصبح النص قائمًا على التجربة الشخصية المباشرة. ويؤكد هذا ما ذهب إليه فيليب لوجون من أن تطابق المؤلف والسارد والشخصية يمثل جوهر السيرة الذاتية[٢٥].

كما يتسم الأسلوب بالبساطة والوضوح، وهو ما يسهم في تقريب النص من القارئ، ويجعل التجربة أكثر صدقًا وتأثيرًا.

أما من حيث البنية السردية، فيعتمد السحّار على تقنية الاسترجاع (الزمن الاستذكاري)، حيث يستعيد أحداث الماضي ويعيد تنظيمها وفق منطق السرد، لا وفق التسلسل الزمني الواقعي. فالذاكرة هنا ليست أداة نقل، بل أداة بناء، تعيد تشكيل التجربة في ضوء وعي لاحق. وقد أشار جيرار جينيت إلى أن الزمن السردي يقوم على إعادة ترتيب الأحداث وفق منظور الراوي، مما يمنح النص بعدًا تأويليًا . ويظهر ذلك في انتقال السحّار بين مراحل حياته، مع التركيز على اللحظات المفصلية التي أسهمت في تشكيل وعيه، وهو ما يجعل السرد انتقائيًا وهادفًا، لا مجرد تسجيل كرونولوجي للأحداث.

تعتمد بنية السرد في «هذه حياتي» على الاسترجاع، حيث يستحضر الكاتب أحداث الماضي ويعيد ترتيبها. يقول:

---

[٢٤] عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، ص.(...)

[25] Philippe Lejeune, op. cit., p. 26.

«كلما عدتُ بذاكرتي إلى تلك الأيام، شعرتُ أنني أعيشها من جديد»[٢٦].

يبرز هذا النص دور الذاكرة في بناء السرد، حيث لا يكتفي الكاتب باستحضار الماضي، بل يعيد معايشته شعوريًا. وهذا ما يجعل السيرة الذاتية نصًا تأويليًّا، لا يقتصر على نقل الوقائع، بل يعيد تشكيلها وفق رؤية الحاضر.

ويرتبط ذلك بما أشار إليه جيرار جينيت من أن الزمن السردي لا يعكس الزمن الواقعي، بل يعيد تنظيمه وفق منطق السرد[٢٧].

ومن الأسلوب البديع المؤثر في القلوب في الاسترجاع تحدث السحار عن الكارثة التي أصابت في أحد إخوته التي مات وهو صغير. قال السحار :

لم تكن هذه أول مرة تضع فيها أمي فقد وضعت من ثبل أنثى ماتت صغيرة، صم وضعت بعدها أربعة ذكور، سقط آخرهم من الشباك بينا كانت ابنة عمه تحمله وتلاعبه فمات. وقد أثار موته عاصفة من القلق والخوف في الدار وفي دور الأسرة التي كانت قريبة من الدار؛ كانوا جميعا يرقبون التحقيق الذي يجريه الشرطة في فزع، خشية أن توجه أية تهمة إلى الصبية التي كانت تحمله، أو أن تتهم أمي بالإهمال. فلما حفظ التحقيق عادت الطمأنينة إلى القلوب، ولم يعد أحد يذكر الطفل الذي اتخذ طريقه إلى بطن الأرض من الشباك.[٢٨]

ثم عبر عن نفسه عندما ولد بين يدي أمه "وجئت إلى الحياة غير راغب فيها، وغير مرغوب فيّ."

وعلى المستوى المنهجي، يتضح أن السحّار يتبع أسلوبًا يجمع بين الوصف والتحليل، حيث لا يكتفي بعرض الوقائع، بل يسعى إلى تفسيرها وربطها بتطوّر شخصيته الفكرية. فكل تجربة تُعرض بوصفها مرحلة في مسار التشكّل، وهو ما ينسجم مع طبيعة السيرة الذاتية بوصفها خطابًا تأويليًا. ويؤكد عبد الله إبراهيم أن السرد السيرذاتي يقوم على تحويل التجربة الفردية إلى بنية ذات دلالات فكرية وثقافية، من خلال إعادة تنظيمها داخل خطاب لغوي (إبراهيم، ٢٠١١). ومن هنا، فإن منهج السحّار لا يقوم على الحكي فقط، بل على التأمل في الحكي، مما يمنح النص عمقًا فكريًا يتجاوز سطح الأحداث.

كما تتجلّى سمة أخرى في الخطاب الأسلوبي للسحّار، وهي التداخل بين السرد والتأمل، حيث تتحوّل الأحداث إلى منطلق للتفكير في قضايا أوسع، مثل الحياة والموت، والمعاناة، والتعلّم. وهذا التداخل يمنح النص طابعًا إنسانيًا عامًا، ويجعل السيرة الذاتية تتجاوز حدود الفرد لتلامس تجارب إنسانية مشتركة. وقد أشار جورج ماي إلى أن السيرة الذاتية لا تقتصر على عرض الحياة، بل تسعى إلى فهمها وتأويلها (May, 1984).ومن ثمّ، فإن الأسلوب عند السحّار ليس مجرد وسيلة تعبير، بل هو أداة لبناء المعنى، وإعادة

---

[٢٦] عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، ص.(...)

[٢٧] Gérard Genette, Narrative Discourse, Cornell University Press, 1980, p. 33.

[28] عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، ص ٣

تشكيل التجربة في إطار أدبي متكامل.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن السمات الأسلوبية والمنهجية في هذه حياتي تقوم على مجموعة من العناصر المتكاملة: حضور الأنا الساردة، بساطة اللغة ووضوحها، توظيف الاسترجاع الزمني، المزج بين السرد والتحليل، والتداخل بين التجربة والتأمل. وهذه السمات مجتمعة تجعل من نص السحّار نموذجًا مميزًا للسيرة الذاتية العربية الحديثة، حيث تتجلى فيه العلاقة العضوية بين الشكل والمضمون، وبين الأسلوب والفكر.

انعكاس المنهج الأدبي الإسلامي في كتاب «هذه حياتي»

يكشف كتاب هذه حياتي لعبد الحميد جودة السحّار عن حضور واضح لمنهجه الأدبي ذي المرجعية الإسلامية، حيث تتجلّى هذه الرؤية من خلال تداخل البعد القيمي مع التجربة الشخصية، بما يجعل السيرة الذاتية ليست مجرد سرد لحياة فرد، بل تعبيرًا عن رؤية فكرية وأخلاقية متكاملة. فالسحّار لا يقدّم ذاته بوصفها كيانًا مستقلًا عن منظومة القيم، بل يحرص على ربط تجاربه بمبادئ أخلاقية مستمدة من الثقافة الإسلامية، مثل الصبر، والالتزام، والإيمان بقضاء الله. وهذا ما يتجلّى في طريقته في تفسير الأحداث، حيث تتحوّل التجربة الحياتية إلى درس أخلاقي، وهو ما ينسجم مع طبيعة الأدب الإسلامي الذي يسعى إلى الجمع بين الجمال الفني والرسالة القيمية. [٢٩]

ويتضح هذا المنهج كذلك في طبيعة التشكّل الفكري الذي يعرضه السحّار، إذ يبرز تأثره بالبيئة الثقافية والدينية التي نشأ فيها، حيث تلعب الأسرة دورًا محوريًا في غرس القيم الإسلامية، كما يظهر في تصويره لعلاقته بوالديه، وحرصهما على الالتزام بالتقاليد. ولا يقتصر هذا التأثير على الجانب السلوكي، بل يمتد إلى تشكيل رؤيته للعالم، حيث تبدو الحياة في نصه مجالًا للاختبار الأخلاقي، لا مجرد سلسلة من الأحداث. وتؤكد هذه الرؤية ما ذهب إليه النقاد من أن السيرة الذاتية تمثّل انعكاسًا للمرجعية الفكرية للكاتب، حيث تتداخل التجربة الشخصية مع الإطار الثقافي الذي ينتمي إليه.(Abbas, 1987)

ومن جهة أخرى، يتجلّى المنهج الإسلامي في البعد التأملي الذي يطبع خطاب السحّار، حيث يربط بين التجربة الفردية والمعنى الوجودي للحياة، في إطار رؤية تقوم على الإيمان والوعي بالمصير الإنساني. فعند حديثه عن الميلاد أو الموت، لا يكتفي بوصف الحدث، بل يضفي عليه دلالة تتجاوز الظاهر إلى التأمل في سنن الحياة، وهو ما يعكس حضور البعد الغيبي في تشكيل رؤيته. وهذا يتقاطع مع ما أشار إليه عبد الله إبراهيم من أن الخطاب السيرذاتي يمكن أن يحمل أبعادًا فكرية تتجاوز التجربة الفردية لتعبّر عن منظومة

[29] Bughdadi, A. M., & Nazar, S. (2020). The style and methodology of Abd al-Hamid bin Judeh al-Sahar in the Prophet's biography. *Islamabad Islamicus*, 1(2), 1–16.

ثقافية كاملة.(Ibrahim, 2011)

كما يظهر انعكاس منهجه الأدبي الإسلامي في اختياراته الأسلوبية، حيث يميل إلى البساطة والوضوح، بعيدًا عن التعقيد أو الغموض، وهو ما يتوافق مع توجه الأدب الإسلامي الذي يهدف إلى الوصول إلى القارئ وإيصال الرسالة بوضوح. فاللغة عند السحّار ليست أداة للزخرفة، بل وسيلة للتعبير عن تجربة إنسانية ذات بعد قيمي. ويؤكد ذلك أن البناء الأسلوبي في السيرة ليس منفصلًا عن المنهج الفكري، بل هو امتداد له وتجسيد عملي لرؤيته الأدبية.

ولا ينفصل هذا المنهج عن المشروع الأدبي العام للسحّار، الذي عُرف باهتمامه بالأدب الإسلامي، خاصة في أعماله التي تناولت السيرة النبوية، مثل سلسلة محمد رسول الله والذين معه. ومن ثمّ، فإن هذه حياتي تمثّل امتدادًا لهذا المشروع، ولكن في إطار ذاتي، حيث تتحوّل السيرة إلى مساحة لتجسيد القيم التي يؤمن بها الكاتب. وهذا يؤكد أن السيرة الذاتية عند السحّار ليست مجرد كتابة عن الذات، بل هي جزء من رؤيته الأدبية الشاملة التي تقوم على توظيف الأدب في خدمة القيم الإنسانية والإسلامية (Bughdadi & Nazar, 2020).

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن كتاب هذه حياتي يعكس بوضوح المنهج الأدبي الإسلامي للسحّار، من خلال ربط التجربة الشخصية بالقيم الأخلاقية، وتوظيف السرد في تقديم رؤية تأملية للحياة، واعتماد أسلوب بسيط يخدم المعنى، فضلًا عن انسجام هذا العمل مع مشروعه الأدبي العام. وبذلك، تتجلّى السيرة الذاتية عنده بوصفها خطابًا يجمع بين الفن والفكر، ويعكس تفاعل الذات مع مرجعيتها الثقافية والدينية في إطار أدبي متكامل.

المناقشة التحليلية

تكشف نتائج تحليل المشكلات الثلاث عن ترابط عضوي بين الخلفيات الفكرية، والبناء الأسلوبي، والمنهج الأدبي في كتاب «هذه حياتي» لعبد الحميد جودة السحّار، بما يؤكد أن السيرة الذاتية ليست مجرد تسجيل لحياة فردية، بل هي بناء مركّب تتداخل فيه التجربة الشخصية مع الرؤية الفكرية والأسلوب التعبيري. فقد أظهرت نتائج المشكلة الأولى أن التشكّل الفكري للسحّار ينبع من تفاعل عميق بين البيئة الأسرية المحافظة، والتجربة الثقافية القائمة على القراءة، والسياق الاجتماعي المتحوّل، وهو ما يتوافق مع ما تذهب إليه دراسات السيرة الذاتية من أن الهوية تُبنى عبر التفاعل بين الذات والواقع (Smith & Watson, 2010).وهذا التشكّل لا يبقى على مستوى المضمون فقط، بل يمتد ليؤثر في طريقة التعبير عنه.

وفي هذا السياق، بيّنت نتائج المشكلة الثانية أن البناء الأسلوبي والمنهجي في النص يعكس هذا التشكّل الفكري بصورة واضحة، حيث يتجلّى ذلك في اعتماد ضمير المتكلم، وتوظيف الاسترجاع الزمني، والمزج بين السرد والتحليل. فهذه التقنيات لا تُعدّ مجرد أدوات فنية، بل تمثّل آليات لإعادة بناء التجربة

الذاتية في ضوء وعي لاحق، وهو ما يؤكده جيرار جينيت في حديثه عن إعادة تنظيم الزمن السردي (Genette, 1980). كما أن بساطة اللغة ووضوحها يعكسان توجّهًا واعيًا نحو جعل التجربة قابلة للفهم والتأثير، بما يحقق توازنًا بين الصدق التعبيري والبناء الفني (عباس، ١٩٨٧). ومن ثمّ، فإن الأسلوب هنا ليس منفصلًا عن الفكر، بل هو تجسيد له في صيغة لغوية وسردية.

أما نتائج المشكلة الثالثة، فقد أظهرت أن هذا التفاعل بين الفكر والأسلوب يندرج ضمن إطار أوسع يتمثّل في المنهج الأدبي الإسلامي الذي يتبناه السحّار، حيث تتحوّل التجربة الشخصية إلى وسيلة للتعبير عن منظومة قيمية قائمة على الصبر، والإيمان، والتأمل في سنن الحياة. ويتجلّى هذا المنهج في تفسير الأحداث، وفي الطابع التأملي للنص، وفي اختياراته الأسلوبية التي تميل إلى الوضوح والبساطة. وهذا ما ينسجم مع طبيعة الأدب الإسلامي الذي يجمع بين الجمالية الفنية والرسالة الأخلاقية (Bughdadi & Nazar, 2020)، كما يؤكد أن السيرة الذاتية عند السحّار ليست معزولة عن مشروعه الأدبي العام، بل تمثّل امتدادًا له في بعده الذاتي.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن العلاقة بين المشكلات الثلاث علاقة تكاملية، حيث يشكّل التشكّل الفكري (المشكلة الأولى) الأساس الذي ينبثق منه البناء الأسلوبي (المشكلة الثانية)، في حين يوجّه المنهج الأدبي الإسلامي (المشكلة الثالثة) هذا التفاعل ويمنحه أبعاده القيمية والدلالية. وبهذا، تتجلّى السيرة الذاتية في «هذه حياتي» بوصفها خطابًا متعدد الأبعاد، يجمع بين التجربة الفردية والرؤية الفكرية والبناء الفني، مما يجعلها نموذجًا دالًا على تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، وعلى قدرتها على التعبير عن الذات في سياق ثقافي وأخلاقي متكامل.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى أن كتاب «هذه حياتي» لعبد الحميد جودة السحّار يمثّل نموذجًا متكاملًا للسيرة الذاتية العربية الحديثة، حيث تتفاعل فيه الخلفيات الفكرية، والبنية الأسلوبية، والمنهج الأدبي في إطار واحد متماسك. فقد تبيّن أن شخصية السحّار تشكّلت من خلال تفاعل معقّد بين البيئة الاجتماعية والتجربة الثقافية، وأن هذا التشكّل انعكس بوضوح في اختياراته الأسلوبية والسردية، التي جاءت معبّرة عن وعيه بذاته وبالعالم. كما أظهرت الدراسة أن المنهج الأدبي الإسلامي يشكّل الإطار المرجعي الذي يوجّه هذا التفاعل، ويمنح النص بعده القيمي والإنساني.

وتؤكد هذه النتائج أن السيرة الذاتية ليست مجرد وثيقة شخصية، بل هي خطاب أدبي وفكري يعكس تحولات الذات في سياقها الثقافي والاجتماعي، كما تكشف عن قدرة الكاتب على تحويل تجربته الفردية إلى نصّ يحمل دلالات إنسانية عامة. ومن ثمّ، فإن دراسة هذا العمل تسهم في تعميق فهم السيرة الذاتية في الأدب العربي، وتبرز أهميتها بوصفها مجالًا يجمع بين التحليل النفسي، والسرد الأدبي، والرؤية

الفكرية.

ويمكن أن تفتح هذه الدراسة آفاقًا لبحوث لاحقة تتناول أعمالًا أخرى لعبد الحميد جودة السحّار، أو تقارن بين سيرته وسير ذاتية عربية أخرى، بهدف الكشف عن تنوّع هذا الفن وتطوره، خاصة في ظل التحولات الثقافية المعاصرة.

ا

لمصادروالمراجع

إحسان عباس، فن السيرة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٥.

فيليب لوجون، السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ، ترجمة عمر حلي، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٤، ص ٣٢.

جميل حمداوي، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الريف للطباعة والنشر، المغرب، ٢٠١٠، ص ٦٧.

محمد عبد المنعم خفاجي، مناهج البحث الأدبي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٥.

صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١١٢.

عبد الرحمن بدوي، السيرة الذاتية (القاهرة: دار النهضة العربية. ١٩٩٨)، ٢٤

إحسان عباس، فن السيرة (بيروت: دار الثقافة. ١٩٨٧)، ٦٧

طه حسين، الأيام (القاهرة: دار المعارف. ١٩٩٧)،

أحمد أمين، حياتي (القاهرة : داز الهلال. ١٩٩٨)،

عبد الله إبراهيم، السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي (بيروت: المركز الثقافي العربي. ٢٠١١)،

عبد الله إبراهيم، السردية العربية ص ١٣٤

عبد الحميد جودة السحّار، هذه حياتي، ص ٨.

Smith & Watson, Reading Autobiography: A Guide for Interpreting Life Narratives, University of Minnesota Press, 2010, p. 6.

Bughdadi, A. M., & Nazar, S. (2020). The style and methodology of Abd al-Hamid bin Judeh al-Sahar in the Prophet's biography. Islamabad Islamicus, 1(2), 1–16.

Gérard Genette, Narrative Discourse: An Essay in Method, Cornell University Press, 1980, p. 25.

Philippe Lejeune, Le Pacte Autobiographique, (Paris: Seuil, 1975).

Georges May, L'autobiographie, Presses Universitaires de France, 1984.